

حقوق الإنسان في دولة القرآن: المراكز المعرفية والمنهجية

د. زكرياء السرتي / باحث في التواصل وتحليل الخطاب.

جامعة السلطان المولى سليمان - المغرب

essartiz@yahoo.fr

تقديم

لقد سعى الأستاذ عبد السلام ياسين إلى بلورة مشروع تجديد الإسلام الذي ينطوي على إنقاذ الفرد من براثن الغفلة والإعراض عن الله سبحانه، ومن العبودية لغير الله تعالى، وإنقاذ الأمة من مستنقع الاستبداد العاض والجبري الذي صادر الحريات والحقوق وأضعف قدرتها على المشاركة الجماعية الواعية في صناعة مستقبل القوة والعزة وحمل رسالة الرحمة إلى العالم.

يؤسس ذلك المشروع التجددي أفقاً مستقبلياً يقطع مع "الإسلام الوراثي" الفردي الذي يحصر دائرة الفهم والعمل في الذات الفردية، ومن ثم فهو يقيم علاقة تشارط بين إنقاذ الإنسان وتجديد إيمانه وبين إنقاذ الأمة وتجديد دينها؛ لهذا يضع فقه التجديد أمام الإنسان المسلم فرصة الاختيار بين مسارين اثنين، لكل منهما معاملة ونتائج الفردية والجماعية:

"إن المسلم إما أن يكون في سبيل الله عز وجل، عبداً مطيعاً له، مُجرباً، متقرباً بالفرض والنفل، مؤمناً بلقاء ربه، مستعداً لذلك اللقاء، مشتاقاً إليه، مستغفراً لذنبه، منيباً، ذاكراً، متفكراً. فذاك سائر في سبيل السعادة. وإما أن يكون عبداً لنفسه، خاضعاً لسلطانها، مطيعاً لهواه، مسترسلاً في شهواته. فذاك الشقي.

ومن كان سائراً في سبيل الهوى، أنى له أن يحمل الأمانة العظمى، أمانة رسالة الله، مبلغاً عن رسول الله، عليه صلاة الله وسلام الله!

من كانت نفسه منطوية على حُبشها ومرضاها أنى يكون شفاء لغثائية الأمة

وأعرابيتها وهو حاملُ الجرثومة بين جنبيه!¹

ولأن مشروع التجديد الإسلامي يعني بالإنسان وسعادته في الدنيا والآخرة، وبمأساة أمة الإسلام التي تكابد أهوال الاستبداد الداخلي والاستكبار الخارجي، فقد حظيت مسألة حقوق الإنسان باهتمام وعناية الأستاذ ياسين الذي اجتهد في تأسيس تصور دقيق المبني، عميق المعنى، مستمد استمداد تلمذة من الشريعة القرآنية والمنهاج النبوي. "لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا". (المائدة: 50)

ويعيننا هنا أن نبسط هذه المسألة الفكرية السياسية، عبر تحديد أهم المفاهيم والأسس المعرفية التي عرض لها الأستاذ عبد السلام ياسين في كتبه ودراساته، بما يمكن من بيان جوانب الأصالة والإبداع والتجديد والتميز فيما جاء به من أفكار وتصورات. هكذا نعرض إشكالية بحثنا في هذا الصدد كما يلي: ما هي المقدمات والأسس التي بنى عليها الأستاذ ياسين تصوره للإنسان وحقوقه وحرياته؟ وكيف أنجز عملية التأصيل العلمي القرآني والنبوي للمفاهيم الرئيسة؟ وما هي معالم فقهاء الاجتهادي في تنزيل شرعة حقوق الإنسان؟

نزعم في بداية بحثنا المضي أن الأستاذ عبد السلام ياسين استطاع بفضل الله تعالى أن يقدم مشروعاً تجديدياً للإسلام يبحث في كيفية تحقيق سعادة الإنسان عامة والمسلم خاصة، وكيفية إنقاذ الأمة من مستنقع الاستبداد العاض والجبري الذي أناخ بكله على صدرها قروناً عديدة بعد عهدي النبوة والخلافة الراشدة الأولى على منهاج النبوة. "ففقهاء المنهاج - وهو ثمرة اجتهاد لهذا المكان وهذا الزمان - يطلب إليه أن يتناول كليات التربية، وكليات الجهاد، بما في ذلك تنظيم حزب الله بما يضمن إحياء رجال ونساء، وإحياء أمة، وتحريك الكل على المنهاج النبوي - على

¹ - ياسين عبد السلام، العدل: الإسلاميون والحكم، مطبوعات الصفاء للإنتاج، ط 1، 2000، ص 57.

الطريق الصاعد عبر العقبة- المؤدي للخلافة الإسلامية بالنسبة للأمة ولرضى الله في الميمنة بالنسبة لكل مؤمن ومؤمنة.¹

ونفترض أن مقارنة الأستاذ ياسين لمسألة حقوق الإنسان في بنائها الفكري السياسي لا يمكن فهمها الفهم الصحيح إلا بتلمس واستحضار حلقات ذلك المشروع الفكري والتربوي الكبير الذي أنفق في تأسيسه عقوداً متتالية من عمره وحياته. حفظه الله.

بناء على كل هذا وذلك، سنجتهد في الاستدلال على صحة ما قدمناه من فرضيات وزعوم، مستأنسين بأقوال ونصوص منتزعة مما كتبه الأستاذ عبد السلام ياسين المفكر الإسلامي المعروف. وسنسلك لتحقيق هذا الغرض جملة من الخطوات المنهجية نبينها كما يلي:

المبحث الأول: التأصيل القرآني والنبوي لحقوق الإنسان

المطلب الأول: تكريم الإنسان

المطلب الثاني: أي إنسان؟ وأية حقوق؟

المطلب الثالث: الحق الأسمى: العبودية لله عز وجل

المطلب الرابع: سياق الشورى

المبحث الثاني: مقدمات لحوار هادئ حول حقوق الإنسان

المطلب الأول: النسق الفكري والسياسي لحقوق الإنسان

المطلب الثاني: ما هو الدين؟ ما هو الإسلام؟

المطلب الثالث: القراءة التاريخية: معالم اغتصاب الحقوق

المبحث الثالث: فقه تنزيل شرعة حقوق الإنسان:

المطلب الأول: اجتهاد علمي وجهاد عملي

المطلب الثاني: المروءة والدين: حلف الفضول

المطلب الثالث: شريعة التدرج والرفق

خاتمة:

¹ - ياسين عبد السلام، المنهاج النبوي تربية وتنظيماً وزحفاً، الطبعة الثانية 1989، ص 14.

المبحث الأول: التأصيل القرآني والنبيي لحقوق الإنسان

أنزل القرآن الكريم على سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم، ليكون كلمة الله الأزلية الموجهة للإنسان، المبينة لأسباب سعادته وشقائه، المانعة لكل ما يخل بحقوقه وحياته. وامتحن الله سبحانه عباده بأن جعل بعضهم لبعض فتنة، لينظر كيف يكون عملهم، وأيهم يسارع إلى إسعاد نفسه والآخرين بطاعة ما فرضه الله عليه واجتناب ما نهى عنه.

لكن أثره الناس وطمعهم وحرصهم على أموالهم ومنافعهم ومصالحهم العاجلة لم تترك لكثير منهم فرصة النظر في العواقب والمآلات، بل أشرعت أمامهم سبل الإقبال على أصناف الشهوات، فكان الحيف والظلم والبغي معالم بارزة في حياة الأفراد والمجتمعات.

في عصرنا "بقايا قليلة من الكرم الإنساني والتضامن الأسري في العالم المتخلف صناعياً، وبقايا من البر الإيماني والمكارمة والتذم بين المسلمين، وبقايا نداء الفطرة في العالم المصنع يتمثل في التجمعات غير الحكومية وفي النداء بحقوق الإنسان. أصبح شعار "حقوق الإنسان" آخر غصن أخضر حي يانع تشبث به الإنسانية العارفة في أحوال الكفر والجحود والنفاق والحضارة المادية الاستهلاكية."¹ من هنا يتعين أن يتجدد النداء الإسلامي، عبر خطاب أهل الدعوة، ليسمع الناس حيثما كانوا رسالة التكريم الإلهي التي لا تقوم إلا على أسس العدل والبر ورعاية الحقوق.

المطلب الأول: تكريم الإنسان

"إن تكرامة الإنسان، وإنصافه، وكشف الظلم عنه، وتحريره من العبودية للعباد ديننا وعقيدتنا. لنا في الموضوع أصالة شرعنا، لا ننقل نقل البليد من ألواح غيرنا ولا نتنازل عما رسمته شريعتنا."² وهي الثنائية التي ستظل من أكبر التحديات الماثلة

¹ - ياسين عبد السلام، الإحسان، مطبوعات الأفق الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1998، ج 1، ص 466.

² - ياسين عبد السلام، العدل، الإسلاميون والحكم، ص 315.

أمام كلمة الإسلام اليوم وغدا: كيف نحقق التكريم القرآني للإنسان ونتقيد بحدود الشريعة، ومع هذا وإلى جانبه نلتقط بيد الحكمة فوائد من تجارب الأمم في حفظ كرامة الإنسان ورعاية حقوقه؟

كلمة الله عز وجل تقول: " وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا". (الإسراء:70) فكيف يكون شرحنا العملي لهذا المبدأ القرآني كما كان شرح الصحابة بمعية رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدر الإسلام، في مرحلتي النبوة والخلافة الأولى؟

يجب أن يكون الشرح العملي الذي يُنتظر حصوله من أهل الدعوة "إعلاءً لمطمح الإنسانية بالإنجازات العملية لا بالمشاحنات الكلامية. وذلك تحدُّ من أعظم التحديات. خاصة وحقوق الإنسان في مجتمعاتنا الغثنائية العنصرية الجبرية مخروقة خرقاً شنيعاً بدائياً، ليس على خروقتها من مساحيق الحضارة وتنكيرها ما يُخفي همجية الفعل كما عند غيرنا."¹

يتفق الدعاة وعلماء الإسلام على الحقيقة القرآنية والنموذجية النبوية الصحابية في تكريم الإنسان وحماية كينونته داخل الجسم الاجتماعي. نجد صورة واضحة عن هذا الاحتفاء في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة. ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة. ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة. والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه."²

للمسلم - في نظر الأستاذ ياسين - حرمة في مجتمع البر، له كرامة، له حقوق، له رعاية، له رصيدٌ يُؤديه إليه الكلُّ عطاءً ومحبة. ويستدل بما روى الشيخان وغيرهما عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرهم بسبع ونهاهم

¹ - ياسين عبد السلام، العدل، الإسلاميون والحكم، ص 316.

² - صحيح مسلم، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم 7028.

عن سبع. أمرهم بعبادة المريض، واتباع الجنازة، وتشميت العاطس، وإبرار القَسَم، ونصر المظلوم، وإجابة الداعي، وإفشاء السلام".¹

إن الاتفاق على الحقيقة القرآنية والوصية النبوية بحسن التطبيق، لا يحجب عن أعيننا بؤس تاريخ وواقع الاستبداد المتدثر بعباءة الإسلام، المهين للإنسان، لكرامة الإنسان، العابث بطاقات الإنسان وإمكاناته، المحرف للكلم القرآني والقصد الشرعي.

لا يحجب الاتفاق عنا بؤس الإنسانية بين أيدي الحضارة الغربية التي تتذلل الإنسان عبر صور الرذيلة والفاحشة والعقيدة الدهرية: "وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ".

(الجنائفة: 24)

لهذا يقرر الأستاذ عبد السلام ياسين حقيقة ثابتة؛ وهي أن "العالم اليوم وغدا ينتظر رَوْحَ الرحمة التي تنفس عنه كَرْبُ الحضارة المادية الهائلة بلا غاية"². فالوسائل والإمكانات فيها تعملقت، وتعملق الاختراع والتكنولوجيا، وتقزم الإنسان، وأصبح دابة استهلاكية لا تعرف لنفسها معنى ولا لسعيها الحثيث على الأرض قرارا. فما يكون أمام الإنسانية إلا أن تتطلع إلى دين الله الحق، إلى الربانيين يحملون بشارة التكريم بعد المهانة، وبشارة العزة بعد الذلة.

المطلب الثاني: أي إنسان؟ وأية حقوق؟

بمعيار القرآن، وبمشكاة السنة، نبصر حقيقة الإنسان القادم من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، المنتقل بعد حين إلى الدار الآخرة ليدرك حقيقة عمله وإنجازه. وبمعيار الوحي، يضع الأستاذ ياسين معالم النظرة إلى الإنسان الذي يسعى جاهدا لنيل حقوقه والاستمتاع بحرياته لأن "الحديث عن حقوق الإنسان دون الدخول في البحث عن نفسية الإنسان الذي يطالب بالحقوق، والإنسان الذي يستبد ويحرم الناس من

¹ - ياسين عبد السلام: العدل، الإسلاميون والحكم، ص 200.

² - المرجع نفسه، ص 62.

حقوقهم، إنما هو التفاف والتفات عما يؤصل داء السِّكْرُفْرِنيا في الرأس، ومرض التشاكس في العقل، ووباء الظلم الاجتماعي، والفساد الخلقي، وسائر العاهات السياسية الاقتصادية العَقْدِيَّة.¹

ففي القرآن الكريم، نجد الإنسان متصفا بصفات أصلية ذميمة. بدون تربية إيمانية لا يمكن انتزاعها من فضائه النفسي الخلقي:

"وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا."

(الإسراء: 83)

"وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا". (الإسراء: 11)

"وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ". (إبراهيم: 34)

"قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا". (الإسراء: 100)

"إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا. إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا. وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا".

(المعارج: 19-21)

وغيرها من الآيات والأحاديث النبوية التي تطلعننا على حقيقة الكيان النفسي للإنسان، وما يميزه من حرص وشح وبخل وتطلع إلى الاستمتاع الدائم اللاهني، وما يطبعه من انزعاج وجزع وهلع جراء ما قد يصيبه من شر وسوء.

ولمكان هذه الصفات الأصلية في الإنسان، يفتح الإسلام أفق التزكية والتطهر والترقي أمام المسلم، بوسيلة التعاون مع الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولغاية الخروج من دائرة الخسران إلى دائرة الفلاح.

ثم إن "الإنسان في الأرض، وعبر التاريخ، صنفان: مستكبرون ومستضعفون.

¹ - ياسين عبد السلام، الشورى والديمقراطية، مطبوعات الأفق الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1996، ص

المستكبرون لهم نفسية، وعقلية، وأهداف مصلحة، وميل إلى التكتل لحفظ المراتب والامتيازات. والمستضعفون في الأرض ضحية دائمة للمستكبرين، وموضوع لعدوان المستكبرين، ومادة بشرية يصنع بها المستكبرون منصة للاستعلاء، وقاعدة للاستغناء.¹

هكذا تزداد وضعية الحقوق الإنسانية استفحالاً في حياة المجتمعات، فتسارع الديمقراطية والمروءة الحقوقية إلى صيانة الحقوق والحريات الخاصة بالإنسان الأبيض المتحضر، ولإنسان الصومال والبنغلاديش الموت البطيء تحت سياط الجوع والمهانة والذلة.

تنتزع اللائكية الديمقراطية المتحضرة الإنسان المواطن في بلادها من أغلال العبودية للبشر، دون أن تنتزعه من العبودية لأهوائه وشهواته، ودون أن تحرره من صفاته الأصلية: الجشع والهلوع والجزع والظلم والاستكبار.

ويزداد الأمر سوءاً في بلادنا الإسلامية حيث تتعاضم المظالم، وتستفحل صور البغي والاستكبار. لهذا "لا بد في البداية من تربية الإنسان، إعادة تربيته، بعد انتشاله من وهدة التحقير والإهمال والاستغلال والتجهيل والتضليل الإعلامي والتسيب الأخلاقي".² وكذلك ينبغي أن تعود معاني القرآن هي المعيار لتحليل الأنفس والآفاق كما كانت عند سلفنا الصالح قبل أن تغزونا الفلسفات الإلحادية المادية. يجب أن يكون القرآن والسنة، وهي شرح القرآن وبيانه وتطبيقه، هما المرجع لا المقارنات المادية للوضعية التي يعتمدها ما يسمى بـ"العلوم الإنسانية"، فيسحب سلوك الحيوان على سلوك الإنسان، ويقارن أنظمة المجتمعات البشرية بعضها مع بعض من نقطة الارتكاز ومنطلق النظر ونموذج الكمال، وهو الحضارة الغربية الدوائية.³

¹ - ياسين عبد السلام، الشورى والديمقراطية، ص 166-167.

² - ياسين عبد السلام، الإحسان، ج 2، ص 173.

³ - ياسين عبد السلام، الإحسان، ج 2، ص 495.

المطلب الثالث: الحق الأسمى، العبودية لله عز وجل

تحريري التربية الإيمانية - أنا الإنسان - من المسلمة الدوائية التي تهيمن علي، فتجعلني عبدا لشهواتي وغرائزي وميولي: "كشفت عن عيني عقلي الغموض، وعن نفسي الخوف، فأنا أريد أن أعرف، من حقي أن أعرف. أوليس حق الإنسان في معرفة الدين والإسلام أسبق الحقوق وأعظمها وأجلها!"¹

قال الله الخالق المحيي المميت: "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون". (الذاريات: 56) فالمعنى القرآني الصريح هو أن "المقصود من الخلق هو الفرد من الجن والإنس يريد له الله الخالق الرازق أن يحقق عبوديته لخالقه. والآيات التي تخبرنا أن هذا الكون خلق من أجلنا، وسخر لنا، دنياه وآخرته، سماؤه وأرضه، كثيرة."² كما نجد في قوله عز وجل: "هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ. يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ. وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ. وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ." (النحل: 10-14)

وفي قوله تعالى: "اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ." (الجنات: 12-13)

سخر الله تعالى للإنسان كل الوسائل الضرورية للقيام بالتكليف الشرعي على

¹ - ياسين عبد السلام، الشورى والديمقراطية، ص 140.

² - ياسين عبد السلام، في الاقتصاد: البواعث الإيمانية والضوابط الشرعية، مطبوعات الأفق البيضاء،

أحسن الوجوه وأكملها، وجوهر التكليف وغايته هو تحقيق العبودية لله الواحد الأحد. لكن "مناخ العبودية لغير الله عز وجل خيم على جمهور الأمة منذ علت سيوف الحكم الجائر الرقاب منذ عهد بني أمية. وإن إطلاق سراح المسلمين من هذه الرقبة الرذيلة مطلب من أول مطالب جند الله، وأمر يجب أن يسبق إلى تنفيذه أحباب الله. وإن الله لا يحب الظالمين، ولا يهدي كيد الخائنين، ويحب المحسنين، ومن أوثق عرى الإحسان العدل. والعدل عكس الظلم والجور والحكم الجبري."¹

هكذا يكون مطلب تحرير الإنسان عامة، والمسلم بوجه خاص، من قيود وأغلال العبودية لغير الله تعالى مطلبا ذا أولوية قصوى في مشروع الإسلام، في مشروع أهل الدعوة الناهضين اليوم وغدا لاستخلاص الحقوق الإنسانية من أيدي المستكبرين في العالم.

وهنا يجب التأكيد على أهمية الاعتبار بالنظر في السياق التاريخي الذي تدحرج فيه فهم العلماء والدعاة والمفكرين وعامة المسلمين لمسألة حقوق الإنسان نزولاً من قمة سامقة، هي قمة التكريم الرباني الشامل، إلى حضيض الذلة والامتهان حيث هيمن فقه التبرير وسد الذرائع. بينما كان المقصد الأسمى من بعثة الخلاق العظيم سبحانه رسله إلى خلقه جلياً مجتمعاً كاملاً متكاملًا في فهم الصحابة على عهد النبوة والخلافة على منهاج النبوة التي لم تدم أكثر من ثلاثين سنة بعد انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى.

"كان ذلك المقصد الجليل جلياً في العقول والقلوب والنيات والعمل الجهادي بجلاء القرآن ونصاعة بيانه وحيويته الدافقة. هذا المقصد هو أن يكون

¹ - ياسين عبد السلام، الإحسان، ج 1، ص 471.

الدين كله لله، وأن لا تكون فتنة في الأرض، وأن يدخل الخلق جميعاً في طاعة الله ليحققوا الغاية التي من أجلها وجد العالم.¹

يتعين إذاً أن نجعل حق الإنسان في معرفة الله عز وجل على رأس قائمة الحقوق الإنسانية التي يكون مطلب تحقيقها وحمايتها جزءاً أصيلاً من الدين الحق الذي بعث الله الرسل عليهم السلام من أجل تبليغه إلى الناس كافة. "رأس حقوق الإنسان عندنا، وأم الحريات، ومنع الكرامة، تحرير الإنسان من كل عبودية غير العبودية لله رب العالمين لا شريك له. ومن حقه في معرفة ربه وخالقه تنبثق سائر الحقوق. بمعرفته لله رب العالمين وربه يكون حق الآخرين عليه واجبا دينياً يؤديه بإخلاص ووفاء، عبادة يعبد بها ربه، لا تعاملها مع القانونية البشرية."²

المطلب الرابع: سياق الشورى

"نحن في زماننا نقدر أن ما ضاع منا كثير وأن ما بقي آثل إلى ضياع إن لم ننهض للطلب، طلب الإسلام كله، طلب الإيمان بشعبه، طلب الخلافة على منهاج النبوة، طلب الشورى والعدل والإحسان."³

ولهذا يجب على علماء المسلمين ومفكريهم، بحسب الأستاذ عبد السلام ياسين، أن يرتفعوا بإزاء القرآن والسنة ليقتبسوا من الوحي مباشرة، ويتجاوزوا الاجتهادات المشروطة بظروف تاريخية تختلف عن ملابسات عصرنا ومقوماتنا حاضراً وتطلعات مستقبلنا.

وإنها لتحديات كبرى تعترض جهاد المسلمين اليوم وغدا لتحقيق منهاج السنة الكلي ومطالبه: الشورى والعدل والإحسان، من خلال بناء دولة القرآن التي ترعى حقوق الناس وتحارب البغي والظلم والشرك والفجور.

¹ - ياسين عبد السلام، نظرات في الفقه والتاريخ، دار الخطابي للطباعة، البيضاء، ط 1، 1989، ص 53.

² - ياسين عبد السلام، حوار مع الفضلاء الديمقراطيين، مطبوعات الأفق، البيضاء، ط 1، 1994، ص 216.

³ - ياسين عبد السلام، نظرات في الفقه والتاريخ، ص 67.

يوضح القرآن الكريم سياق الحياة الإسلامية الذي لا يقبل التجزئ، سياق الشورى حيث يتنفس الإنسان هواء الفطرة النقي، ويتجدد للأمة أفق العزة والحرية والعدل. يوضحه القرآن في سورة الشورى: "فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ. وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ. وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ." (الشورى: 36-39)

إن النظام الشوري في الدولة الإسلامية نظام متكامل للحياة المجتمعية الراشدة، يؤسسها المؤمنون والمؤمنات، ويكفلونه بقلوب يملؤها اليقين بأن ما عند الله خير، وبعقول ذكية تتلمذ على الوحي، وبارادة جهادية صلبة تحارب الإثم والفواحش والبغي. لا يقبل نظام الشورى كبائر الإثم والفواحش، أي الحق في الفجور والفسق، وهي الإباحية الصائلة اليوم في دنيا الناس.

ولا يقبل القهر والخضوع، أي سلب الحقوق والحريات. بل ينتصر المؤمنون للحرية والعدل ويجاهدون البغي وأهل البغي.

ولا يقبل سوء توزيع الثروات الذي بموجبه يزداد الأغنياء غنى والفقراء فقرا. بل يحث على الإنفاق الواسع ليكون المجتمع مجتمع رحمة وأخوة وبذل.

ولا يقبل الإلحاد، أي الحق في ترويح العقيدة الدهرية في مجتمع يؤمن بالله واليوم الآخر ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة. "وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ." (الجنائفة: 24)

المبحث الثاني: مقدمات لحوار هادئ حول حقوق الإنسان

تأسس مقارنة الأستاذ ياسين لمسألة حقوق الإنسان على مقدمات معرفية ومنهجية يتعين استنباطها من مكتوباته المختلفة بما يساعد الباحث على استجلاء الرؤية الإسلامية التجديدية في الموضوع، وبما يسعف في تذليل صعوبات الحوار بين الإسلاميين وغيرهم. وهي مقدمات يتعلق بعضها بالنسق الفكري والسياسي الشامل الذي يندرج فيه مفهوم حقوق الإنسان، تنظيرا وممارسة خاصة في المنظومة الغربية.

ويتعلق بعضها الآخر بتحديد مفهوم الدين ومفهوم الإسلام، إذ "لطالما بقي الإسلام غامضا في ذهن الناس، لطالما قبع الإسلام في التقوى الفردية، في المسجد لا يخرج منه، في الكتب الفقهية وخلافاتها، في الفضاء النفسي بعيدا عن واقع المسلمين".¹ وإن الخروج من دائرة ذلك الغموض الفكري الذي يحدثه "الإسلام التقليدي" و"الإسلام الحداثي" لما يساعد على تجنب الالتباس في حلبة التدافع الفكري والإيديولوجي والسياسي بين الإسلاميين وخصومهم اللائيكيين سواء أ كانوا من الليبراليين أو اليساريين أو غيرهم من أهل الجمود والتقليد.

وتتعلق جوانب أخرى في هذا المبحث بالقراءة التاريخية لمراحل الماضي بما يمكن من فهم حاضر الأمة الإسلامية، وما يعتمل فيه من عناصر التخريب والنسف، وما يهيمن على عقول العامة والخاصة في مجتمعاتنا الغثائية من غموض وضبابية. يقول: "ألح عليكم إخوتي أن تعرفوا أن الانكسار التاريخي حدث محوري في تاريخ الإسلام، وسيبقى فهمنا لحاضر الأمة ومستقبلها مضببا بل مشوشا غاية التشويش إن لم ندرك أبعاد تلك الأحداث وآثارها على مسار تاريخنا وتجلجلها في الضمائر عن وعي في تلك العهود وبحكم تكوين المخزون الجماعي الذي توارثته الأجيال. رجّة عظيمة مزقت كيان الأمة المعنوي فبقي المسلمون يعانون من النزيف في الفكر والعواطف منذئذ، ويؤدون إتاوات باهظة لما ضُعب من وحدتهم وتمزق من

¹ - ياسين عبد السلام، المنهاج النبوي تربية وتنظيما وزحفا، ص 7.

شملهم وتجزأ من علومهم وأقطارهم.¹

المطلب الأول: النسق الفكري والسياسي لحقوق الإنسان

يقرر الأستاذ عبد السلام ياسين حقيقة ترابط مفهوم حقوق الإنسان مع مفاهيم غربية مركزية في المنظومة الفكرية والسياسية مثل الديمقراطية ودولة القانون وسيادة الشعب والعقد الاجتماعي والمجتمع المدني والمواطنة. وبهذا تدخل حقوق الإنسان ضمن ما يسميه "المساق الديمقراطي"، فلا يتأتى النظر إلى المفهوم ولا فهمه إلا ضمن مساق مترابط العناصر والمقومات.

فقد "وُلدت حقوق الإنسان، المتعارف عليها دولياً، على فراش واحد مع شقيقتها الديمقراطية واللايكية اللادينية. حررت الثورة أمتنا فرنسا منذ قرنين من وصاية الكنيسة، وانتصفت من اعتساف الحكم الشيوعي."²

تترابط "الحقوق الإنسانية"، كما هي متعارف عليها دولياً، مع الديمقراطية وآلياتها ووسائلها وقيمها وروحها اللايكية. ولكون التلازم أمراً محتوماً بين "حقوق الإنسان" وشقيقتها الديمقراطية واللايكية اللادينية (العلمانية)، فإنه صار من الأكيد تلون المضمون الفكري والسياسي بمعاني الاشمئزاز من الدين، ومن كل دين. "ولأنها حقوقية وضعها وفرضها وفكرها لا يكيون أفحاحاً، فإن المتعارف عليه في القانون الدولي أن الإنسان كائن حُرّ من كلّ فكرة أو دين أو مبدأ لا يتفق مع النظرة اللايكية الدوائية للإنسان."³

ثم إن الحقوقية الديمقراطية الغربية صارت هي المعيار لكل خطاب وكل موقف لما تعززت القوة العسكرية الاستعمارية للحلفاء الأوربيين والأمريكيين بالانتصار البين في الحرب العالمية الثانية. فهي منذئذ حقوقية بمعيار المنتصرين الحلفاء: "حقوق الإنسان كما

¹ - ياسين عبد السلام، نظرات في الفقه والتاريخ، ص 27-28.

² - ياسين عبد السلام، الشورى والديمقراطية، ص 111.

³ - ياسين عبد السلام: الشورى والديمقراطية، ص 123.

هو متعارف عليها دوليا مبنية على معاهدات لم يحضر إبرامها المسلمون، لم يحضر إبرامها في سان فرانسيسكو إلا الأمم المنتصرة في الحرب العالمية الثانية. لم يُبرمها المستضعفون في الأرض، وأتى لهم. لذلك فهي منذ ديباجتها تقسم الأمم إلى سيدة ومَسودة. ولم يحضرها المؤمنون بالله ورسوله حاملو رسالة الإسلام، ولم يوقعوها لدى ميلادها.¹

كان من نتائج كل ذلك أن أصبحت "حقوق الإنسان" أداة سياسية يستعملها المنتصرون الأقوياء لتدبير مصالحهم في العالم، ولفرض سيطرتهم على الأمم والشعوب الفقيرة: "مَبْنَى هذه الحقوق على ميزان قُوَى حضارية عسكرية اقتصادية. لا جَرَم تكونُ أداةً من أدوات السيطرة، يخضع لإرهابها الفقراء من ذُول العالم، وتمنح، وتمنع، وتستنهي، وتشتترط، حسب المصالح الدائمة والطارئة للأمم القوية المنتصرة. فلأنها حقوقية قوي منتصر، لا يمكن إلا أن تكون بطبيعتها وطبيعة مولدها ومقوماتها نوعا من قانونية فصائل ذئاب متنافسة فيما بينها، متصالحة، يقابلها فصائل حِملان."²

ينبغي أن يدرك أهل الدعوة طبيعة تلك الحقوقية المنتصرة التي تزهو بنفسها، وتنزل قوتها العسكرية الضاربة حيثما تجلت مصالحها القومية، مصالح الإنسان الأبيض المتحضر، مصالح الأمة المنتجة السيدة. وبهذا يجوز للدولة الأمريكية أن تكذب وتحتال لتهجم على العراق وأفغانستان، وتستحوذ على كل ما تريد. ويجوز للدول القوية المتحضرة أن تدعم الصهيونية رعاية لـ"حقوق إسرائيل" التاريخية.

ينبغي أن يدرك أهل الدعوة كل ذلك ليعرفوا كيف يتم اللقاء على أرضية مشتركة مع الفضلاء وذوي المروءة في العالم، اليوم وغدا، لنصرة المستضعفين ورعاية حقوقهم. وفي قلب عالم المستضعفين أمة الإسلام.

¹ - المرجع نفسه، ص 122.

² - المرجع نفسه، ص 122-123.

المطلب الثاني: ما هو الدين؟ ما هو الإسلام؟

يفرض نقد الحقوقية اللائكية، كما هي متعارف عليها دولياً، السعي لصياغة جواب دقيق واضح عن سؤال محوري يبدو غير ذي جدوى عند كثير من الناس. لكن ضرورة الخروج من الالتباس الذي يحيط بالأفهام عند كل منعطف حوارى بين الإسلاميين وغيرهم، تبرر إلحاح الأستاذ عبد السلام ياسين على البيان والتبيين:

"سؤال ما هو الدين وما هو الإسلام فضول فكريّ، أو نشاط ثقافي، أو نزهة في البستان المعرفي، أو تنقيب في التراث، إن لم يسبق السؤال يأسٌ كَشَفَ عن عينيّ غموضَ إسلامٍ أدّعه -وربما أصلي- ولا أعرفه، وكَشَفَ عن نفسيّ خوفاً من إسلامٍ متحركٍ هاجمٍ يهدد مواقعى السياسية الاحترافية والنضالية الوطنية القومية."¹

الغموض الفكري والاضطراب النفسي والخوف على ضياع المواقع السياسية والنضالية معالم بارزة في المجال المشترك الحقوقي السياسي داخل مجتمعاتنا المعاصرة. ولمكان هذه الأسباب الحقيقية التي تحول دون الحوار الجدي والتعاون المثمر بين الإسلاميين والديمقراطيين المناضلين في ساحة حقوق الإنسان، فإن تجديد طرح السؤال الدقيق بين يدي المطارحة العلمية يغدو أمراً مشروعاً ونافعاً.

وثمة وجه آخر للمسألة هو الإسلام الموروث الخاضع للاستبداد، الموالي له في بعض الأحيان، المدافع عن بقائه، المقدم له المبررات الكفيلة بسلب الحقوق والحريات. ذلك أن إسلامنا الموروث عقيدة وفهماً وواقعاً إسلام فتنه. يختلط فيه الحق بالباطل. فهو فهماً عقيدة وواقعاً كما وصفه الحديث الشريف: خير وفيه دخن. والدخن دخان. ونار الفتنة متأججة.²

هذا الفهم الساذج التقليدي المضطرب للإسلام هو عامل مساعد ومثال معاكس

¹ - ياسين عبد السلام، الشورى والديمقراطية، ص 139-140.

² - ياسين عبد السلام: المنهاج النبوي تربية وتنظيمًا وزحفاً، ص 443.

يستخدمه بعض الناس الذين أضمرُوا معاداة الدين، أو على الأقل أضمرُوا تهميش الدين عن ميدان المجتمع والدولة.

هؤلاء اللاتيينكيين وأولئك التقليديين، وجب تحرير القول البين في معنى الدين ومعنى الإسلام: "الدين لغة الانقياد والخضوع. فالدين عند الله انقياد، واستجابة مخلصة، وطاعة مبدئية لله ورسوله تُصدّقها طاعات، وتكاليف، ووقوف عند حدود، ومسؤوليات."¹

"والدين لقائي مع الله هنا على صعيد العبودية له والخضوع والفرح بأبني مخلوق له رسالة في الحياة ومآل بعد الموت."²

ليس الدين "رليجيون" religion كما يفهمه كثير من المثقفين والسياسيين والحقوقيين ممن تعلموا المفاهيم وتلقوا التصورات عن الفكر الجاهلي، الجاهل لقيمة الإنسان، ومهمة الإنسان، والغاية من وجود الإنسان.

ألا وإن "الإسلام اعتراف بالقلب واعتقاد، ووفاء بالعمل، واستسلام لما أمر الله به ورسوله."³ ومما أمر به الله ورسوله أداء الحقوق ورعايتها حفاظا على الكرامة الآدمية التي أحاطها الإسلام بسياج قوي لا يجوز لأحد انتهاكه ولا العبث به. قال الله سبحانه: " وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا". (الإسراء: 70)

المطلب الثالث: القراءة التاريخية: معالم اغتصاب الحقوق

في المشروع التجديدي الذي بناه الأستاذ عبد السلام ياسين، نجد الربط جليا بين اجتهاد أهل الدعوة وجهادهم لبناء دولة القرآن وما يستلزمه كل ذلك من تقديم تصور واضح لمسألة الحقوق والحريات من جهة، وبين القراءة التاريخية لمسيرة الأمة الإسلامية

¹ - ياسين عبد السلام: الشورى والديمقراطية، ص 140.

² - المرجع نفسه، ص 141.

³ - المرجع نفسه، ص 140.

وفق إخبار النبوة الذي نجده في حديث الخلافة على منهاج النبوة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها. ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها. ثم تكون ملكا عاضا، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها. ثم تكون ملكا جبريا، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها. ثم تكون خلافة على منهاج النبوة. ثم سكت".¹

هي مراحل مسيرة طويلة ميزتها وقائع الانكسار التاريخي الذي مس الحكم الإسلامي في زمن مبكر، بل نقض الحكم وأسسها وقيمه الرئيسة: الشورى والعدل والإحسان، فانتقل أمر الأمة من خلافة تسير على منهاج النبوة إلى ملك عاض وجبري يغتصب الحقوق ويسلب الحريات.

بحسبان هذا المنطلق التاريخي، يؤكد الأستاذ ياسين أن الاجتهاد العلمي المقصود في فقه التجديد، ومعه الجهاد العملي لتحرير الناس وانتزاع حقوق الناس، ليس عملا جزئيا محصورا في مجال مخصوص، بل هو منهاج علمي وعملي شامل يستضيء بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته رضي الله عنهم الذين بنوا صرح دولة القرآن في مرحلتي النبوة والخلافة الأولى، و"الذين جمعوا أطراف الإحسان وأقطار المجد الدنيوي والأخروي من كل جانب".²

هو منهاج تحرير شامل يخرج الأمة مما فعله المستبدون الوراثيون الذين انقضوا على الحكم، وأجهزوا على قيم العدل والشورى والإحسان، وأدخلوا الأمة في متاهات البغي والظلم والعنف تحت سياط الملك العاض والملك الجبري.

يقول الأستاذ عبد السلام ياسين موضحا الأفق الجهادي المستقبلي ونوعية الرجال

¹ - أخرجه الإمام أحمد في مسنده (273|4).

² - ياسين عبد السلام: الإحسان، ج 1، ص 54.

الذين تحتاجهم جهود البناء الإسلامي: "للنهضة الثانية، نهضة الخلافة على منهاج النبوة، نحتاج رجالا، ونساء، أقوياء أمناء، مسلحين بالعلم والخبرة والكفاءة العملية ليحملوا للعالم رسالة الإسلام، ليغيروا وجه العالم، ليحيوا عن الأسئلة من الحجم الضخم التي يطرحها العصر على الإنسانية، ليقاوموا في مقدمة المستضعفين طغيان الرأسمالية العاتية التي تستعبد أربعة أخماس الإنسانية ليعيش القلة المستعيلة في الترف واللذة."¹

يكون الجهاد مفتاحا للتقرب من الله تعالى، ومراقبة إلى الهداية والخير، للمؤمن العامل والمؤمنة. وهو للأمة طريق النصر والفلاح والعزة بين العالمين.

إن التحليل التاريخي الذي يريده الأستاذ عبد السلام ياسين يختلف بشكل جوهري عن ذلك التحليل الذي لا ينظر إلا بعين واحدة، إذ يقدم نظرة عوراء دنيوية غابت عنها الآخرة، فيحاكم تاريخ المسلمين إلى شمولية سياسية اجتماعية اقتصادية، ويقيس بمعيار المادة في عالم الأسباب والمسببات، وهو عالم تجري أحكامه على الخلق أجمعين.² ومعنى هذا أن القراءة التاريخية الإيمانية لماضي الأمة وحاضرها ينبغي أن تهتدي بالوحي وإخبار النبوة لكيلا نسقط في فخ المثلية مع الحضارة الجاهلية، والحقوقية الجاهلية.

إن التحليل المنهجي للتاريخ يمكننا من الوقوف عند قيدين اثنين يمنعان الفكر الإسلامي من التحرر الكامل والاستقلال بالنظر الاجتهادي العلمي؛ وهما قيد التقليد وقيد الفكر الاستعماري الغازي.

● قيد التقليد: يتمثل هذا القيد في كون بعض الناس من المسلمين، ومن الكتاب المحسوبين على الدعوة، تعترض ذهنية التقليد الراسخة فيهم نياتهم الجهادية الصالحة، فإذا بهم يفكرون ويوصون ويجتهدون في حدود نمط الحكم الأموي، والمجد العباسي،

¹ - ياسين عبد السلام: العدل، الإسلاميون والحكم، ص 169-170.

² - ياسين عبد السلام: نظرات في الفقه والتاريخ، ص 65.

والشوكة العثمانية، والفقهاء الفروع، والعقيدة الجدلية عند علماء الكلام، والدفاع بلا تمييز عن تاريخ المسلمين يحسبونه تاريخ الإسلام.¹

فمن باب النظر إلى الأمور من أسافلها أن تشغل ترسبات تاريخنا الحافل عقولنا وطموحاتنا، وأن يكون ثقل الأحداث الماضية جاثماً على صدورنا، وأن نحكم تحديات الحاضر والمستقبل إلى تراثنا الفقهي الشري العظيم لا غير.

لهذا يؤكد التحليل المنهجي كون "تجارب تاريخنا ثروة إذا لم تُحَلَّنَا إلى التقليد والدخول في بُوتقة الجمود. وعناصرُ إشكاليتنا غير ما كان يفتي فيه الأصولي الفقيه والفقيه المحدث. فإن ربطنا حلولنا بهواجس التاريخ الفتوي ثوبنا في الدوام، في دورة عقيمة."²

لنخرج من الدورة العقيمة، دورة الاستبداد والتقليد والخضوع، يعمل الحاملون لمشروع التجديد الإسلامي على تحقيق التأسسي الكامل بالرسول الرؤوف الرحيم صلى الله عليه وسلم، والافتداء بصحابته رضي الله عنهم الذين تمسكوا بمنهاج النبوة في معالجة واقعهم الاجتماعي السياسي الاقتصادي بعقلانية فذة، لا بعقل بليد مقلد.

● **قيد الفكر الاستعماري الغازي:** وهو القيد الفكري الذي يمنع عقولنا من الاستقلال بالنظر فيما تمخض عنه تاريخ الحضارة المنتصرة من تجارب سياسية واجتماعية واقتصادية، لنلتقط الحكمة التي هي ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها. إن "تجارب أوروبا درس إن استطعنا الخروج من سيطرتها على المبادرة إلى عقولنا لتفرض عليها الأسئلة والأجوبة، لأننا إن بقينا في درء برهانهم الساطع على تفوقهم وتقدمهم بالتعلق الأعمى بحدائث وعصرنة لا تطاوعنا إلا بفقد ديننا فقد خسرنا الدنيا والآخرة."³

¹ - ياسين عبد السلام: نظرات في الفقه والتاريخ، ص 44.

² - ياسين عبد السلام: العدل، الإسلاميون والحكم، ص 519.

³ - ياسين عبد السلام: العدل، الإسلاميون والحكم، ص 519.

لكن كيف استمر تأثير الفكرة الغربية في ذاتنا الجماعية؟
ما الذي ضمن للمستعمر القديم أهلية السيطرة على عقولنا ونفوسنا ومقوماتنا
المعنوية بعد أن نهب مقوماتنا المادية عقوداً متتالية؟
استمر مفعول الفكر الاستعماري الجاهلي بما استطاع غرسه في بني جلدتنا من
نماذج التربية المضادة التي تمكنت واحتلت مواقع التأثير والتوجيه في المجتمع والدولة،
فصار خطابها هو الخطاب، وصارت مقاييسها في تعريف الحقوق وبيان حدودها
والذود عنها هي المقاييس "المقدسة" التي يأثم من يقول بخلافها.
"هذه الأجيال المغرَّبة المنبهرَّة بالغرب وحضارته وعقلانيته، الملحِدُ بعض
أفرادها، الساخرون من الدين، هم قِلَّةٌ عدديَّةٌ تستجلبُ قُوَّتها من مواقعها في
سلطة الدولة: في الجامعات، والإدارات، والمؤسسات الاجتماعية، ومراكز
القرارات. رَغْوَةٌ وزبْدٌ عددًا، قوةٌ فاعلةٌ مؤثرةٌ مَدَدًا."¹
لهذا السبب أصبحت الحقوقية الغربية مرغوبة مرجوة في أعماق ذاتنا الجماعية،
وصار لها تلامذة نبهاء يحكمون بلاد المسلمين، ويوجهون العقول الغضة الطرية،
ويدوسون الدين بأقدام الحداثة الغربية.

¹ - ياسين عبد السلام: حوار الماضي والمستقبل، ص 143.

المبحث الثالث: فقه تنزيل شرعة حقوق الإنسان

في هذا المبحث الأخير، نطرح سؤال التنزيل العملي التطبيقي لشرعة حقوق الإنسان، أي لمنهاج النبوة في المطالبة بالحقوق الإنسانية بل إقامة بنائها وأسسها تحت راية دولة القرآن، دولة الشورى والعدل والإحسان.

فما الذي يتعين التفكير فيه، والتخطيط له، والعمل الدؤوب لإصلاحه وتقويمه لتكون الحقوق الإنسانية مكفولة في بلاد المسلمين أولاً، وفي عالم المستضعفين ثانياً، وفي سائر المجتمعات الإنسانية ثالثاً؟

بهذا الترتيب يتقدم المؤمنون والمؤمنات، المجاهدون والمجاهدات، لتحرير الناس من العبودية لغير الله تعالى، من أغلال الاستكبار والاستبداد والهوى. فهو تحرير متدرج يبدأ من أقطار المسلمين شيئاً فشيئاً، في سياق تغيير تربوي اجتماعي سياسي اقتصادي علمي شامل يصطلح الأستاذ ياسين على تسميته بـ "القومة"¹ استناداً إلى النص القرآني. يقول الله سبحانه: "وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا. وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا." (الجن: 18-19)

المطلب الأول: اجتهاد علمي وجهاد عملي

ذكرنا في فقرة سابقة كون الأستاذ عبد السلام ياسين أكد على ضرورة التحرر من قيدين اثنين يمنعان الفكر الإسلامي من التحرر الكامل والاستقلال بالنظر الاجتهادي العلمي؛ وهما قيد التقليد وقيد الفكر الاستعماري الغازي.

¹ - "أستعمل كلمة "قومة" للدلالة على نهوض الأمة بقيادة طليعتها من جند الله لقرض العدل والإحسان على الواقع الكئيب المتميز بالتخلف والاستبداد في الحكم، والظلم في القسمة، والنفور العام عن دين الله، والجهل به، والإعراض عن الآخرة وعن الله عز وجل، والاستقالة من التشريف الإلهي والتكليف الذي عين هذه الأمة لحمل رسالة الحق للعالمين.

أستعمل كلمة "قومة" موافقةً للقرآن الكريم ومطابقة في تسمية الانطلاقة الثانية بما سميت به الأولى." ياسين عبد السلام: الإحسان، ج 2، ص 500.

إن النظر الاجتهادي المتحرر من اعتماد مقاييس التراث الفقهي العظيم سيمكننا من الاتصال بالوحي مباشرة لنجتهد لمشاكل وتحديات حاضرنا ومستقبلنا، ومنها وفي مقدمتها مسألة الحقوق والحريات. هذا مع العناية الكاملة بالشروط التربوية الإيمانية والعلمية والعملية المؤهلة للاجتهد.

كما أن النظر الاجتهادي المتحرر من قيود الفكر الغربي اللائيكي سيجعلنا قادرين على التفكير والعمل انطلاقاً من ذاتيتنا وأصالتنا. فلا نعود للنسج على منوال الحقوقية الدوائية التي تتيح للإنسان أن يتمادى في تلبية شهواته بما يتجاوز الحيوانات جميعاً، وأن يعلن تمرداً على خالقه محتماً بـ"قوانين ومواثيق عالمية".

مع الاجتهاد العلمي يقترن الجهاد العملي استجابة لداعي الله، من داخل أقطار المسلمين وأقفاصهم القومية العشائرية الثائقة نُحْبُها لديمقراطية محررة. استجابة لداعي: «وأن هذه أمتكم أمة واحدة». استجابة لتوحيد وتوحد ليجتمع شمل الأمة فتقوى على مواجهة التحديات المصيرية الكبرى.

إنه "اجتهاد علمي يتشاور فيه المتقون العلماء الخبراء، ومعه جهاد عملي يعبئ قوى الأمة لتتقدم متوكلة على الله، معتمدة على عونه، لتشق طريقها في الأرض نحو الكفاية والقوة، ولتحمل رسالة الله إلى الإنسان. التوكل على الله عمل، ما هو تَمَنُّ وأمل. التوكل على الله ركن مهم من أركان الشورى وسياقها القرآني وشروطها المؤسّسة."¹

المطلب الثاني: المروءة والدين: حلف الفضول

من المفاتيح الضرورية لتنزيل مشروع التجديد المنهجي، وفي القلب منه مسألة الحقوق والحريات، تأسيس جسور للتفاهم والتواصل والتعاون بين الإسلاميين وغيرهم من الفضلاء الذين يحملون هم إخراج الأمة من دائرة الاستبداد السياسي، والفساد الاقتصادي والخلقي، والتفكك الاجتماعي، وهدر الحقوق، واغتصاب الحريات.

¹ - ياسين عبد السلام: الشورى والديمقراطية، ص 78-79.

بفضل الله تعالى بدأت أمارات كنس المستكبرين المستبدين من ديار المسلمين، وهبت شعوب الأمة في أقطارها إلى دفع الإسلاميين نحو مواقع المسؤولية، مسؤولية تدبير التحديات الكبرى. فالإسلاميون "وهم في طريقهم إلى الحكم تفرض عليهم المواقف السياسية، كما يندبهم لذلك دينهم، الوفاق والتعاون مع جمعيات حقوق الإنسان، الوطنية المحلية منها والدولية. إن اختلفت البواعث فالأهداف توحد. باعثهم المروءة، مروءة "نظيرك في الخلق". وباعثنا العقيدة والمروءة معا. فإن كانوا يحملون معايير الغيرة على الضعيف والكراهية للظلم فنحن بقسطاس الدين المستقيم نضع الرحمة مواضعها، لا نترك الوفاق يُرهقنا إلى شيء من التنازل عن الحق المنزل." ¹

يتعاون أهل المروءة والدين لإخراج أبناء الأمة والإنسانية من قهر المستكبرين، وظلم المستبدين حيشما وجدوا. ولهذا التفاهم يعد الإسلاميون عدتهم وأهبتهم الكاملة.

المطلب الثالث: شريعة التدرج والرفق

من شريعتنا التدرج في معالجة الأمور والقضايا. فقد "رتبت قدرة الله العزيز الحكيم في الآفاق وفي الأنفس أن النتائج لا تأتي قبل المقدمات، وأن الصيف لا يأتي بالثمرات وأن الزروع لا توتي حصيدا قبل مطر الشتاء وشمس الربيع، وأن الناس لا يستجيبون لداعي الله ولا يدخل الإيمان في قلوبهم ولا تتألف صفوفهم إلا مع الوقت والصبر وطول المعاناة." ² ولذلك كانت خصلة التؤدة من أهم خصال النبوة، وكانت سنة النبيين وسنة من يتبعهم بإحسان إلى يوم الدين هي الأسوة الكاملة مصداقا لقوله تعالى: "ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا، ولا مبدل لكلمات الله." (الأنعام: 34)

¹ - ياسين عبد السلام: العدل: الإسلاميون والحكم، ص 330.

² - ياسين عبد السلام: العدل: الإسلاميون والحكم، ص 156.

لا يستطيع أهل الدعوة أن يرفعوا أوزار الحيف والظلم والبغي عن رقاب الناس إن لم يتحلوا بخصال الصبر والأناة والرفق التي هي قبس من نور النبوة. فعلى منهاج النبوة وخصاله وشعبه يتأتى لحملة رسالة الإسلام أن يلجوا ميدان حقوق الإنسان ولوج الصابرين المحتسبين القاصدين. والله ولي المؤمنين.

خاتمة

تكشف دراستنا لمباحث مسألة حقوق الإنسان الحاجة الملحة للتوسع في استخراج الأصول والأسس القرآنية والنبوية التي جلاها الأستاذ عبد السلام ياسين في نظرية المنهاج النبوي، بما يمكن من تحديد منزلة تلك المسألة الفكرية والسياسية ضمن مسار بناء الدولة الإسلامية سواء تعلق الأمر بالدولة القطرية أو دولة الخلافة على منهاج النبوة.

ولقد استطعنا بفضل الله تعالى أن نحدد بعض المبادئ التي استخلصناها من دراسة تصور الأستاذ عبد السلام ياسين لمسألة حقوق الإنسان، والتي نراها صالحة لتكون نواة لميثاق إسلامي دولي حول هذه الحقوق يوم يجلس الإسلاميون والفضلاء إلى مائدة الحوار والتقارب خدمة للإنسانية كلها، وتحقيقا لمجتمع الأخوة الإنسانية، وإرساء لدعائم العدل والحرية والرحمة:

- أعلى الحقوق الإنسانية وأسمائها حق معرفة الإسلام، ومعرفة الخالق سبحانه.
 - لا نقبل أبدا من "الحقوق المعلنة" ما يصطدم بشرعنا الحنيف، ومنها حق الفسوق وحق الإلحاد.
 - نطالب بحق الإنسانية في الحفاظ على الكوكب الأرضي نظيفا، وعلى البيئة الطبيعية مَصونة للأجيال.
 - واجب الأبرار الأحرار أن يلبوا نداء المحتاج والمستضعف والصادق أينما كان.
- إن كتابات الأستاذ عبد السلام ياسين تؤكد على طائفة من الأسس والمقدمات التي يتوجب أن يبني عليها أهل الدعوة من المجتهدين والمجاهدين، سيرا نحو بناء دولة القرآن التي تعني أساسا تحرير الإنسان من سطوة أخيه الإنسان، ومن كل ما يستعبده وينتقص من آدميته.

فنحن نجد في مشروع التجديد الإسلامي الذي أسسه عقودا متتالية، إلحاحا بينا على التعاون الأكيد بين الساعين لتحرير الأمة والإنسانية من الاستبداد والاستكبار، سواء أكانت نياتهم صادرة عن المروءة الإنسانية أو كانت نابعة من عقيدة تؤمن بالله واليوم الآخر.

قائمة المصادر والمراجع

بعد القرآن الكريم:

- ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، "مسند الإمام أحمد بن حنبل"، تحقيق شعيب الأرنؤوط، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة 1996.
- مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، "صحيح مسلم"، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت - دار إحياء التراث العربي.
- ياسين عبد السلام: الإحسان (الجزءان الأول والثاني)، الطبعة الأولى، مطبوعات الأفق، الدار البيضاء 1998.
- ياسين عبد السلام: حوار الماضي والمستقبل، الطبعة الأولى، مطبوعات الأفق، الدار البيضاء 1997.
- ياسين عبد السلام، حوار مع الفضلاء الديمقراطيين، الطبعة الأولى، مطبوعات الأفق، الدار البيضاء 1994.
- ياسين عبد السلام: الشورى والديمقراطية، الطبعة الأولى، مطبوعات الأفق، الدار البيضاء 1996.
- ياسين عبد السلام: في الاقتصاد، البواعث الإيمانية والضوابط الشرعية، الطبعة الأولى، مطبوعات الأفق، الدار البيضاء 1995.
- ياسين عبد السلام: العدل: الإسلاميون والحكم، الطبعة الأولى، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء 2000.
- ياسين عبد السلام: المنهاج النبوي تربية وتنظيما وزحفا، الطبعة الثالثة، الشركة العربية الإفريقية للنشر والتوزيع، بيروت 1994.
- ياسين عبد السلام: نظرات في الفقه والتاريخ، الطبعة الأولى، دار الخطابي للطباعة والنشر، الدار البيضاء 1989.